﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ [النور: 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد بيانِ فُحْشِ التَّناقُلِ لحديثِ الإفكِ؛ عطفَ على التَّأديبِ الأوَّلِ تأديبًا آخرَ

لمّا بيَّن ﷻ فُحْشَ التَّناقُل لحديث الإفك وفظاعتِه؛ عطف على التَّأديب الأوَّل في قوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ تأديبًا آخر، فقال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ﴾، أيْ: وهلّا حين ﴿سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم﴾، أيْ: حين السَّماع من غير توقُّفٍ ولا تلعثُم، وفصل بين آلة التَّحضيضِ والقول المُحضَّض عليه بالظَّرف؛ لأنَّ الظُّروف تنزلُ من الشَّيء منزلةَ نفسهِ لوقوعه فيها، وأنَّها لا انفكاك لها عنه، ولأنَّ ذِكْرَه مُنبِّهٌ على الاهتمام به لوجوب المبادرةِ إلى المُحضَّض عليه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُهْتَٰنٌ﴾: (بهت) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ كالدَّهَشِ والحَيْرَةِ، يُقالُ: بُهِتَ الرَّجُلُ يُبْهَتُ بَهْتًا، والبَهْتَةُ: الحَيْرَةُ، فأَمّا البُهْتانُ؛ فالكَذِب[2]، ومن هذا البُهْتان: الافتراءُ الباطلُ الذي يُتَحَيَّر من بطلانهِ، فهو الادِّعاء الذي يسبِّب ذلك الأثرَ، لزيادة الفُحش فيه مع كونه باطلًا لخلوِّهِ من الحقيقة[3]، ومعنى البهتانِ في الآية الكريمة: الكذبُ الذي يُبهِت سامعه لفظاعته[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كان حريًّا بمَن سمعوا حديثَ الإفكِ أن ينأوا بأنفسِهم عن هذا البهتانِ

هلّا حين سمعتم ما لا يليق في شأنِ الخيرَة؛ قلتم مع الظَّنِّ بهم خيرًا: لا ينبغي لنا، ولا يصحُّ أن نتكلَّم بهذا عن الأَطهار البررة،

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 13/ 232.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بهت).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (بهت).
(4) الراغب، المفردات: (بهت).

بدلًا من ترديدكم له بالرِّواية عن مُخترعيه، هلّا قلتم مُتعجِّبين ومُستكبرين لما يقولون: ﴿سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، وكذبٌ مُحيِّرٌ خطيرٌ، لا يصحُّ أن يُقال في عرض كرام المؤمنين؟[1]

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ عطفِ الآية على سابقتها:

أيُّ نـورٍ وفضلٍ ورحمةٍ في عَرْضِ الدّاءِ ودوائِه؟!

عُطِفت هذه الآية على سابقتها: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾؛ لأنَّها شاركتها في التَّوجيه والزَّجر لما بدر منهم، يقول البقاعيُّ: "ولمّا بيَّن فُحشَهُ وشناعته، وقُبحه وفظاعته؛ عطفَ على التَّأديب الأوَّل في قوله: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ تأديبًا ثانيًا، فقال: ﴿وَلَوْلَآ إِذْ﴾، أيْ: وهلّا حين ﴿سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم﴾، أيْ: حين السَّماع من غير توقُّفٍ ولا تلعثم"[2].

في الآيةِ قصُّ ما كان مِن العُصبةِ تجاه خبرِ الإفك

ويجوزُ أن تكون هذه الآيةُ معطوفةً على الآية التي قبلها: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾؛ لأنَّها تقُصُّ ما كان مِن العُصبةِ تجاه خبرِ الإفك بعدَ سماعِه، وكان القولُ بالأفواه لما ليس لهم به علمٌ وسطًا بين شيئَيْن: بينَ تمهيدٍ له: ﴿تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾، وتعليقٍ عليه: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾، وأمّا هذه الآية؛ فهي تُبيِّن ما كان ينبغي أن يُقالَ عند سماع خبرِ الإفكِ، فهي تصحيحٌ لما سبق في الآية التي قبلها، فبينَهما تقابلٌ وتضادٌّ.

غرضُ تقديم ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾:

الاهْـتِـمـامُ بِـمَـدْلـولِ ذَلِـكَ الـظَّـرْفِ، وبيانُ قـبـحِ ذلـك وشناعتِهِ

جاء تَقديمُ الظَّرْفِ - وهوَ ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ - على عاملِهِ وهوَ ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾؛ للاهْتمام بِمَدْلولِ ذَلِكَ الظَّرْفِ؛ تَنْبيهًا على أنَّهُم كانَ مِنْ واجبهم أَنْ يَطْرُقَ ظَنُّ الخَيْرِ قُلوبَهُم بِمُجَرَّدِ سَماعِ الخَبر، وأن يتبرَّؤوا من الخَوْضِ فيه بِفَوْرِ سَماعِهِ[3]، يقول الآلوسيُّ:

(1) مجموعة من المؤلّفين، التّفسير الوسيط: 6/ 1380.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 13/ 231.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 174.

"والنُّكتة في توسيط معمول الفعل المحضَّض عليه بينه وبين أداة التَّحضيض - وإن جاز ذلك مطلقًا، أيْ: سواءٌ كان المعمول الوسط ظرفًا أم غيره - تخصيصُ التَّحضيض بأوَّل وقت السَّماع، وقصرُ التَّوبيخ واللَّوم على تأخير الإتيان بالمحضَّض عليه عن ذلك الآن، والتَّردُّد فيه، ليفيد أنَّ عدم الإتيانِ به رأسًا في غاية ما يكون من القباحةِ والشَّناعة"[1]، وفيه أيضًا ما سبَق ذكرُه في نظيرِه.

نكتةُ إسنادِ السَّماعِ إلى الجميعِ:

جريانُ الكلامِ على الإبهامِ في التَّوبيخِ

في قوله تعالى: ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ "أَسْنَدَ (الخطابُ القرآنيُّ الحكيم) السَّماعَ إلى جَميعِ المُخاطَبينَ، وخَصَّ بالتَّوْبيخِ مَنْ سَمِعوا، ولَم يُكَذِّبوا الخَبَرَ، وجَرَى الكَلامُ على الإبْهامِ في التَّوْبيخِ بطَريقَةِ التَّعْبيرِ بصيغَةِ الجَمعِ، وإنْ كانَ المَقْصودُ دونَ عَدَدِ الجَمعِ، فإنَّ مَنْ لَم يَظُنَّ خَيْرًا رَجُلانِ؛ فعَبَّرَ عَنْهُما بالمُؤْمِنينَ"[2].

عودُ الضَّمير في ﴿سَمِعْتُمُوهُ﴾:

الضَّمير في قوله ﷻ: ﴿سَمِعْتُمُوهُ﴾ يعودُ إلى حديث الإفك الذي تكرَّر ذِكْرُه مُضْمَرًا في الآيات التي تناولتِ الحديثَ عنه[3].

نكتةُ إعادةِ (لولا) وشرطها وجوابها:

زيادةُ الاهتمامِ بما تضمّنته الآيةُ من الأحكامِ

جاءت إعادةُ (لولا) وجوابها وشرطها لزيادة الاهتمام بمضمون الآية في التَّأكيد على ضرورة الاهتمام بالأحكام التي جاءتْ بها، وأنَّ الأمرَ برُمَّته كان يمكن تجنُّبُهُ ووقف سريانه لو أنَّه عولج عند أوَّل سماعِهِ.

نكتةُ حذفِ متعلِّق ﴿قُلْتُم﴾:

تقديرُ الكلامِ في الآية: (قلتم للَّذين أخبروكم هذا الخبر)،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 314.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 174.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 180.

فالحذفُ للإيجازِ للعلم بالمحذوف، ويمكن أن يكونَ من أغراضِ الحذف هنا التَّعميمُ ليشمل مَنْ نقلوا لهم الخبر، ومَنْ كان حاضرًا عند نقله، وليشملهم هم أنفسهم بأن يقولوا لأنفسِهم أيضًا: (ما يكونُ لنا أن نتكلَّم بهذا).

للإيجازِ للعلمِ بالمحذوفِ، أو للتَّعميمِ ليشملَ مَنْ نقلوا لهم الخبرَ

إنَّ اللهَ يُحِبُّ لعبادِه عظيمَ الطاعاتِ

دلالةُ التَّعبيرِ بفعلِ الكونِ المنفيِّ:

التَّعبيرُ بفعل الكونِ المضارع المَنفيِّ في قوله: ﴿مَّا يَكُونُ﴾ يدلُّ على معنى: أنَّه ما كان ينبغي من أوَّلِ الأمر ولا في أيِّ وقتٍ أن نتكلَّم بهذا الإفكِ، فدخولُ فعلِ الكون أفاد أنَّ هذا الأمرَ ينبغي أن يكونَ شأنُه وديدنُه كذلك في كلِّ زمان، دون قصرِه على وقتٍ مُحدَّدٍ، يقول ابن عاشور: "وإنَّما قالَ: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، دونَ أَنْ يَقولَ: (لَيْسَ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذا)؛ لِلتَّنْبيه على أَنَّ الكَلامَ في هَذا وكَيْنونَةَ الخَوْضِ فيه حَقيقٌ بِالانْتِفاءِ، ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى حِكايَةً عَنْ عيسَى عليه السلام: ﴿قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة: 116]"[1].

الموقعُ الإعرابيُّ لقوله: ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾:

المصدر المُؤوَّلُ من ﴿أَن﴾ والفعل في قوله سبحانه: ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ في محلِّ رفع فاعل (كان)؛ إن كانت تامَّةً، وفي محلِّ رفع اسمها؛ إن كانت ناقصةً، ويكون خبرها: ﴿لَنَآ﴾[2].

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِهَٰذَا﴾:

في قول الله ﷻ: ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ جاءتِ الباءُ لتفيدَ الإلصاقَ والملابسة الذي لا يكاد ينفكُّ عن معنى الباء، فضلًا عن إفادتها تعديةَ الفعل هنا.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 180.

(2) صافي، الجدول في الإعراب: 9/ 240، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 581.

غرضُ التَّعبيرِ باسم الإشارةِ القريب:

انتشارُ الخبرِ قد ينظر إلى غرابته

التَّعبيرُ باسم الإشارة القريب في قوله تعالى: ﴿أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ دون التَّصريح بذِكْر الإفك أفاد التَّحقيرَ لشأن هذا الخبر الكاذب المُتعلِّق بأمِّ المؤمنين، والمشار به للقريب، فإنَّما هو لقرب التَّداول به وتناقله بينهم، فهذا الموضوع حاضرٌ بينهم، لا يغيب بسبب تعلُّقه بالبيت الأوَّل للمسلمين، وفي أخصِّ الأمور التي من شأنها أن تهدمَ كيانَهُ.

الموقعُ النَّحويُّ والبيانيُّ لقوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾:

النَّفسُ السَّويَّةُ يشتدُّ نفورها مِن هذا الإفك

يقول ابن عاشور: "و﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ جُملَةُ إنْشاءٍ وقَعَتْ مُعْتَرِضَةً بَيْنَ جُملَةِ: ﴿مَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، وجُملَةِ: ﴿هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾، و﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ مَصْدَرٌ وقَعَ بَدَلًا مِنْ فِعْلِه، أَيْ: نُسَبِّحُ سُبْحانًا لَكَ، وهوَ هُنا مُسْتَعارٌ لِلتَّعَجُّب؛ لأنَّ التَّعَجُّب مُسْتَحيلَةٌ حَقيقَتُهُ على اللّه مِثْلَ ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ﴾ [الصافات: 180]، يَتَعَيَّنُ أَنْ تكونَ مُسْتَعْمَلَةً في أَكثر من التَّنْزيه، وذَلِكَ هوَ التَّعْجيبُ مِنَ الخَبَرِ المُتَحَدَّث به"[1]، فتكون الجملة ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ تقريرًا لما قبلها، وتمهيدًا لما بعدها[2]، وفي هذه الجملةِ أيضًا دلالةٌ على شدَّة نُفْرةِ النفس من هذا الإفك[3].

نكتةُ إضافةِ التَّسبيحِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

قد يكونُ المعنى الواحد قصَّةً من المعاني

وإضافَةُ التَّسبيح إلَى ضَميرِ الخِطابِ مِنْ إضافَةِ المَصْدَرِ إلَى مَفْعولِه، وتَوْجيهُ الخِطابِ إلَى اللّه في قَوْلِه: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ لِلْإِشْعارِ بِأَنَّ اللّه غاضِبٌ على مَنْ يَخوضُ في ذَلِكَ، فعليهم أَنْ يَتَوَجَّهوا للّه بِالتَّوْبَةِ مِنْهُ لِمَنْ خاضوا فيه وبِالاحْتِرازِ مِنَ المُشارَكَةِ فيه لِمَنْ لَم يَخوضوا فيه[4]، وفي الإضافة تسليم الأمر وتفويضُه للّه ﷻ ومناجاة له بأن يدافع عن البريء، وينتقم مِن الظالم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 15/ 10.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 99.
(3) البقاعي، نَظْم الدُّرر: 5/ 244.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 18/ 181.

نكتةُ فصل: ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾:

في الإفصاحِ كمالُ التبرئةِ

يمكنُ أن يكون سببُ فصلِ هذه الجملة كمالَ اتِّصالها بما سبقها؛ إذْ إنَّها جملةٌ تعليليَّة لقوله: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، ويمكنُ أن يكونَ سببُ فصلها عنها الاستئنافَ البيانيَّ، وهو ما يُسمَّى بشِبْه كمال الاتِّصال؛ جوابًا عن سؤالٍ مُقدَّرٍ، فُهم بعد قوله تعالى: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾، وتقديرهُ: (لِمَ لا يكون لنا أن نتكلَّم به؟) وكونُه بهتانًا عظيمًا يلزم منه معنى قولِه: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبۡحَٰنَكَ﴾، وهذه الجملة المنفيَّة - وكذلك الجملة المعترضة - تُنْتِج هذه الجملة: ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٞ﴾، فبينها وبين ما قبلها كمالُ اتصالٍ، مِن نوع التَّوكيد المعنويِّ الخفيِّ، فلهذا غابت الواوُ.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ القريبِ:

كيف يُقذَفُ الشَّريفُ كاملُ ظهورِ الشَّرَفِ؟

التَّعبيرُ عن خبر الإفك بقوله: ﴿هَٰذَا﴾ هو مِن قبيل التَّحقيرِ له، والتَّقليل من شأنه، وأنَّه لا يليق به أن يُذكر، وإنَّما يُشارُ إليه إشارةً، وفيه تنبيهٌ على أنَّ كون خبر الإفك بهتانًا عظيمًا واضحٌ قريبٌ إدراكُه كالمحسوسات؛ إذ إنَّه يتعلَّق بالصِّدّيقة بنت الصِّدّيق ﷺ زوجة خير المرسلين ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالبهتان مادَّةً وصيغةً:

الإنكارُ بصيغةِ المصدرِ إنكارٌ له بكلِّ صيغِهِ واشتقاقاته

عُبِّر بالبهتان؛ لبيان أنَّ خبرَ الإفك كذبٌ يُبْهِتُ مَن يواجَهُ به، ويُحيِّرُه؛ لشدَّةِ ما يَفعل في القوَى الباطِنَةِ؛ لأنَّه في غاية الغفلةِ عنه؛ لكونه أبعدَ الناسِ منه[1]، وأفاد التَّعبير بالمصدر هنا المبالغةَ في تكذيب هذا الخبر جملةً وتفصيلًا، والتَّصريحَ بكونه إفكًا مُفترًى لا أصل له، وأنَّ إنكاره بصيغة المصدر هو إنكارٌ له بكلِّ صيغِهِ واشتقاقاته، ولعلَّ هذا السَّببَ هو وراء مجيء (الإفك) بالمصدر في هذه السّورة على وجه الخصوص.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 244.

نكتةُ تنكيرِ ﴿بُهۡتَٰنٌ﴾:

إفادةُ التَّعظيمِ أو التَّحقير، أو الغرضيْن معًا

أفاد التَّنكيرُ هنا عدَّة معانٍ بحسب التَّوجيه لها، فقد يكون التَّنكيرُ هنا مفيدًا للتَّعظيم على اعتبار أنَّ الآيةَ وصفت هذا البهتانَ بالعِظم، ويمكن أن يكون غرض التَّنكيرِ هنا التَّحقيرَ لشأنه، والتَّقليل من أمره، ولا مانعَ يمنعُ من الجمع بين هذَيْن الغرضَيْن، فهو بهتانٌ عظيمٌ في دناءَتِهِ وغرضه الذي سيق لأجله.

فائدةُ وصفِ البهتان بالعِظَم:

بيانُ عظمةِ المبهوتِ عليه واستحالةِ صدقِ البُهتانِ، أو لتهويلِه وتفخيمِهِ

في قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بُهۡتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ وُصِفَ البهتان بالعظَم؛ لعظمة المبهوتِ عليه، واستحالة صدقِ البُهتان، فإنَّ حقارةَ الذُّنوب وعظمها باعتبار مُتعلِّقاتها، وفي وصفه به أيضًا تهويلُه وتفخيمُهُ؛ إبلاغًا في طرده من النَّفس[1]، وممّا لا يخفى أنَّ بناءَ ﴿عَظِيمٌ﴾ على زنةِ (فعيل) يدلُّ على ثبوت هذه الصِّفَةِ وملازمتها للبُهتان.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/ 244.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والثلاثون،
سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 36 ، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-79-2
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 36 : المجلد السادس والثلاثون، سورة المؤمنون من الآية 64 إلى سورة النور الآية 38.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-78-5
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8956803 بتاريخ 2024/11/26م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»